جمهرة مقالات
الأستاذ محمود محمد شاكر

جمعها وقرأها وقدم لها
الدكتور عادل سليمان جمال

الجزء الأول

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الأولى

رقم الإيداع ٢٣٩٠ /٢٠٠٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977 - 353 - 015 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية – قطعة ١٣٩ – شارع ٣٩ – مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ – ٨٣٣٨٢٤٢ – ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail : pic@6oct.ie-eg.com

« إنما حَمَلتُ أمانة هذا القلم لأَصْدعَ بالحق جِهارا فى غير جَمْجَمَة ولا إِدْهان . ولو عرفتُ أنى أعجَزُ عن حَمْل هذه الأمانة بحقّها لقذفتُ به إلى حيث يذِلُّ العزيز ويُمْتَهَن الكريم ... وأنا جندىٌّ من جنود هذه العربية ، لو عرفتُ أنى سوف أحمل سيفا أو سِلاحا أَمْضَى من هذا القلم لكان مكانى اليوم فى ساحة الوغى فى فلسطين ، ولكنى نَذَرتُ على هذا القلم أن لا يكُفَّ عن القتال فى سبيل العرب ما استطعتُ أن أحمله بين أناملى ، وما أتيح لى أن أجد مكانا أقول فيه الحق وأدعو إليه ، لاينهانى عن الصراحة فيه شىء مما ينهى الناس أو يخدعهم أو يغرر بهم أو يغريهم بباطل من باطل هذه الحياة » .

الرسالة ، العدد ٧٥٦ ، ديسمبر ١٩٤٧ ، ص ٣ ، ١٤ ،
المقالات ١ : ٤٩٠

« ولهذه الفصول غرض واحد ... هو الدفاع عن أمة برُمَّتها ، هى أمتى العربية الإسلامية ... فصار حقا علىّ واجبا أن لا أتلجلجَ أو أُحجِم أو أُجَمْجِمَ ، أو أدارى ، ما دُمْت قد نَصَبْتُ نفسى للدفاع عنى أُمَّتى ما استطعت إلى ذلك سبيلا = وصار حقا علىّ أن أستخلص تجاربَ خمسين سنة من عمرى قضيتُها قَلِقاً حائرا ، أصارِع فى نفسى آثارَ عدوٍّ خَفِىّ ، شديدِ النِّكاية ، لم يَلْفِتْنى عن هول صِراعه شىءٌ ، منذ استحكمت قُوّتى واستنارت بصيرتى » .

أباطيل وأسمار ، ص : ١٠ - ١١

* * *

رحمة الله عليك يا أبا فهر ، رحمة الله عليك ! قَلْب الأمة الإسلامية المتوثب ، وعينها الساهرة ، وحصنها الحصين .

فإن تكن قد ذهبت إلى ربك راضيا مَرْضِيًّا ، ففى قلب هذه الأمة تعيش روحك الخالدة التى لا تفنى ، وفى قلب هذه الأمة يُحْفَر قبرك الذى لا يُنْسَى .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

- ١ -

قصة الكتاب

الحمد لله الذى كرَّم هذه الأمة بنور الإسلام ليخرجها به من ظلمات الجهل والشرك والطغيان ، والحمد لله الذى شرفها بجعلها مهبط آخر رسالاته وأتمها وأكملها ، والحمد لله الذى بعث منها سيد العالمين شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا بإذنه وسراجا منير ، وأرسله للناس كافة رحمة للعالمين ، ﷺ تسليماً كثيراً .

وبعد ، قابلت الأستاذ شاكر رحمه الله أول مرة عام ١٩٥٨ وأنا بعد طالب فى السنة الثالثة من دراستى الجامعية وقد وضّحتُ طرفا من ذلك فى مقالى عن كتاب طبقات فحول الشعراء [١] ، وكذلك فى مقدمة الحماسة البصرية (طبع مكتبة الخانجى) . وعلى فارق مابيننا من السن والعلم فقد وجد شيئا منى ينسرب فى نفسه ، وأنستُ أنا به كما أنس هو بالرافعى . ولزمت داره كل يوم تقريبا منذ مطلع الشمس حتى منتصف الليل ، أقرأ مقالاته فى الرسالة وسائر المجلات والصحف بعد أن أنتهى من عملى فى رسالة الماجستير . ومضت السنون وعرفتُ عن الأستاذ شاكر مالم أكن أعرف . وكنت شابا طُلَعة ، وكان هو شيخا طويل الصمت ، قارّ النَّفْس ، يرمى بعينيه وراء الحُجُب . ولكنى كنتُ أحسّ أحيانا أن صدره يضيق بما يكتم . فقد كان يخيم علينا صمت ثقيل بعد أن نصلى المغرب ونجلس فى شرفة منزله نحتسى الشاى . فإذا آنست أنى مُخْرِج منه بعضَ ما أريد ، أبديتُ رأيا أو تعليقا على بعض ماجاء فى المقالات من أحداث أو رجال سماهم

(١) انظر مجلة معهد المخطوطات ، المجلد ٤٢ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٩٨ ، ص ٩٥ - ١٤٠ .

أو أشار إليهم ولم يسمّهم . وتمضى الدقائق وكأنها ساعات ، وإنى لأشعر خلال ذلك بهذا الصراع المخيف بين إلحاح ما أَلِف وصلابة الأغلاق التى يضربها على ضمير نَفْسه وعناده الذى يأبى عليه الكلام عن نفسه ، وبين إلحاح هذا الهم الجاثم على صدره يريد أن يجد له مَسْربا ، فقد كان الأستاذ شاكر رحمه الله ، قاسيا عنيفا ، ولكنه كان رقيقا ألوفا أيضا ، وكان جلدا صبورا ، ولكنه ربما تخشّع واستكان للجزع ، وكان مستوحشا آبدا ، ولكنه ربما أَلِفَ وانقاد ، وكان كالطود رسوخا وشموخا ، ولكنى كنت أنفذ إليه أحيانا - عندما آنس فى نفسه هذا الصراع بين القوتين - فأجد الزلزلة فى قلبه ، والاضطراب فى نفسه ، والتهدج فى صوته . وعندئذ يشق كثافة الصمت الثقيل البهيم ويحدثنى عما أثرتُ بما شاء إلى أن يشاء ، ثم يعود إلى صمته المُصْمَت من جديد كأن لم يكن حديث . كان الأستاذ رحمه الله وديعا رقيقا باشًّا ألوفا ، وكان قلبه يفيض شفقة ورقة وحنانا ، ولكنه أصيب بكوائن بعد بوائق جعلت منه رجلا ظنونا منطويا حزينا فهو لذلك يضن بما فى قلبه أن يطلع عليه أحد إلا بمقدار مايريد هو .

ثم أزاحت ندوة يوم الجمعة صخرة عن باب كهف توارت فى أعماقه كنوز لفَّفها الزمن فى محاريبه ، ضمت الندوة رجالا مختلفى المشارب والأهواء ، منهم الساسة والأدباء والشعراء ، وعاشقو التراث ، ومحبو الأدب الحديث ، ورجال لا يمتون إلى العربية تخصصا أو احترافا ، ولكنهم واسعو الثقافة . وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأستاذ رشاد مهنا ، والأستاذ حسين ذو الفقار صبرى ، والشيخ الباقورى ، والأستاذ عبد الله التَّل ، والأستاذ وديع فلسطين ، والأستاذ عبد الرحمن شاكر ، والأستاذ محمود حسن إسماعيل ، والأستاذ جلال كشك ، والأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، والأستاذ رشاد عبد المطلب ، والأستاذ سيد صقر ، والأستاذ حسن كامل الصيرفى ، والأستاذ فؤاد سيد ، والأستاذ ياسين جمعة ، والدكتور عبد الله غنيم والدكتور يعقوب غنيم والدكتور عبد الله محارب ، والأستاذ أحمد المانع والشيخ حمد الجاسر والدكتور عبد الله الطيّب فى بعض الأحايين ، والدكتور أبو همام ، والدكتور إحسان عباس ، والدكتور

محمد يوسف نجم ، والأستاذ يحيى حقى ، والدكتور عبد الرحمن بدوى ، والأستاذ فتحى رضوان ، والدكتور ناصر الدين الأسد ، ناهيك عن طلبة العلم من كل حدب وصوب مثل الدكتور شاكر الفحام ، والأستاذ أحمد راتب النَّفَّاح ، والدكتور عبد القدوس أبو صالح ، وغيرهم ممن غابت عنى أسماؤهم الآن . وكنت أنا وغيرى من صغار الشباب ، خاصة الأستاذ عبد الحميد بسيونى ، والأستاذ الحسانى عبد الله ، وأخى المرحوم الطناحى والأستاذ على شاكر ، رحمه الله ، ننتشر فى مجالس القوم حيث يدور الحديث فى شتى المواضيع وتحتدم المناقشات وتصطدم الآراء ، وينبعث من غياهب الماضى ذكر رجال وأحداث ، فسمعنا ووعينا ، وعرفنا مالم نكن نعرف عن زمن لم نشهده ، ساعدنا على أن نفهم حاضرا نتمثله . وكنت شديد الانتباه لما يتعلق بالأستاذ شاكر ، فعرفت – إلى جانب ما حدثنى به عن نفسه كما ذكرت آنفا – أشياء أُخر عنه . واستبان لى حينئذ أننى لست أمام محقق أديب فقط [1] ، ولكن فى حضرة رجل مناضل مصرى عربى إسلامى ، نافح عن مصر وهاجم ساستها ، وهَوَى بِسنان قلمه طَعْنا فى الاستعمار البريطانى وأعوانه من بنى جلدته ونافح عن قضية مصر والسودان ، وقضية فلسطين وسائر قضايا البلاد العربية والإسلامية كما سيأتى بيانه .

فلما عرفتُ ماعرفت أدركتُ أن العزلة التى ارتضاها الأستاذ شاكر لنفسه منذ سنة ١٩٥٣ قد حالت بين جيلنا وبين عِرْفان نضاله فى سبيل أمته ، وأن هذا الجهل سيزداد إيغالا فى مطارح الزمن ، وستنشأ أجيال بعدنا أشد منا عمىً ، وأقبح جهلا ، وأَضْيَع لِذِكْرِه . فاستجمعت شجاعتى ذات مساء فى أواخر شهر إبريل سنة ١٩٦١ ، وقد آنست منه « انبساطا » ، فقد كان يحدثنى عن واقعة فَكِهَة حدثت فى « دُكَّان الحاج سَعْد المجلِّد » رحمه الله عصر ذلك اليوم ، وقلتُ : لى رجاء هو مِن حقّ جيلى عليك ، بل ومن حق الأجيال الآتية عليك أيضا . ففى كل أوان ، بل فى كل يوم ، ينشأ طالب علم لم يدرك زمنه ما كتبتَ فى المجلات

---

(١) كما عرفته من كتبه كتفسير الطبرى وطبقات فحول الشعراء وغيرهما ، ومن قراءتى عليه المفضليات والأصمعيات والمعلقات .

والصحف ، وعسير عليه أن يلتمسه فيهما مع تباعد أزمانهما وندرة توافرهما فى المكتبات . وسوف تُسْدِى إلى أُمَّتنا يدا لا تُنْسَى إذا جُمِعَت هذه المقالات فى كتاب . فارتد إلى صمته فجأة ، وتجهم وجهه شيئا ، ونحا ببصره إلى قِطْع من الليل جاثم من عن يمينه نحو رواق طويل تقوم رفوف الكتب على جانبيه ، وأطال النظر فى جوفه ، ثم قال بهدوء ، كهدوء البحر قبل العاصفة ، فى صوت يضطرب بعضه فى بعض اضطراب الموج فى تياره « أنا لا أحب أن أعيد نَشْر شيء كتبته وقرأه الناس قبلُ فى مجلة أو صحيفة »[1] . وقد اعتدت ألا أعاود الأستاذ شاكر فى شيء يعزف عن الكلام فيه ، فسكتّ مُكْرَها ، وكدت أُذكِّره بحديث رسول الله ﷺ « مَن سُئِل عمّا يَعْلَمُه فكتَمَه أَلْجَمَه الله بلجام من نار يوم القيامة » ، ولكنى هبت أن أجْبهه بمثل هذا الكلام ، وكدت أُفُوه بحديث آخر أَسْتَلِينه به : « زكاةُ العِلْم نَشْرُه » ، ولكنى أمسكتُ . ثم مضت ثلاث سنوات . وفى أواخر عام ١٩٦٤ بدأ لويس عوض نشر سلسلة من المقالات بعنوان « على هامش الغفران : شيء من التاريخ » ، فتصدَّى له الأستاذ شاكر يُفَنِّد مزاعمه ويُبين عن الدوافع الحقيقية من وراء هذه المقالات . ونَشَرَ أول هذه الردود فى مجلة الرسالة ، العدد ١٠٨٩ فى ٢٦ نوفمبر ١٩٦٤ (٢٩ رجب ١٣٨٤) . فانبعث فى نفسى أملى القديم ، ولكنى سترته إلى حين – تحت رجاء ماظننتُ الأستاذ شاكر يستطيع ردّه هذه المرة بنفس الصرامة التى قابل بها رجائى السابق .

قلت له : إنى أظن ظنا أشبه باليقين أن لويس عوض سوف ينشر مقالاته هذه فى كتاب وسيكون بأيدى الناس فى هذا الزمان ومستقبل الأيام إلى ماشاء الله[2] ، فإن لم تفعل كما سيفعل ، فسوف ينتشر هذا العلم الفاسد الذى ضمنه كتابه بين

---

(١) وهذا شيء كنت أعلمه عن الأستاذ شاكر ، وبالغ فى ذلك حتى أنه كان يكره أن يستشهد بكلام كتبه من قبل . يقول مخاطبا محمد رجب البيومى « وأنا أكره أن أنقل كلاما لى من مكان ، ولكنك استكرهتنى على نقله » . وانظر مقال « ذو العقل يشقى » ، مجلة الرسالة ، العدد ٩٧٤ ، سنة ١٩٥٢ ، ص : ٢٤٥ ، والمقالات ١ : ٥٧٤ .

(٢) وقد صدق حدسى ، فقد نشر لويس عوض مقالاته فى « كتاب الهلال » ، العدد ١٨١ ، إبريل ١٩٦٦ .

طلاب العلم الناشئين والغافلين ، ويأخذونه على محمل الجد ، فهو نتاج رجل « من كبار مثقفينا » ، كما وصفه الدكتور مندور [1] ، فإذا كان هذا ظن الدكتور محمد مندور ، رحمه الله ، وهو من هو فى الأدب والنقد ، فما بالك بظن أشباه العوام وأنصاف المثقفين ؟ فالرأى أن تُجْمع مقالاتك وتنشر فى كتاب يتداوله الناس ، فيعرف من يقرأ حقيقة ماكتب لويس عوض ، ومن تصدوا للدفاع عنه . وتعمدت إثارة هذا الأمر فى ندوة يوم الجمعة وسرنى أن بعض الحضور كانوا قد سبقونى إلى اقتراح ذلك على الأستاذ خلال مكالمات هاتفية ، وكان الدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ عبد الرحمن شاكر من أشد الناس تأييدا وتعضيدا . وبعد لَأْى وافق الأستاذ شاكر على جمع المقالات [2] .

وقد ظننت أن ماصدّر به الكتاب إيذان بهجران ما أَصَرَّ عليه من إلْفِه حيث قال : « وبعدُ ، فقد قَضَيتُ دهرا أحمل القلم وأكتبُ ، ولكنى ظَلِلْتُ أكره أن أنشر على الناس شيئا قد قرأوه من قبل فى صحيفة أو مجلة ، حتى إذا كان ماكتبتُه فى مجلة الرسالة منذ يوم الخميس ٢٢ رجب سنة ١٣٨٤ ، وجدت إلحاحا شديدا على جَمْع ما نُشِر وإخراجِه فى كتاب . وكانت حُجّة أصحابنا قاهرةً لِحُجَّتى ، ومزيلةً لما أصررتُ عليه من إلْفِى . وعسى أن أكونَ أخطأتُ الطريقَ حين أَلِفْتُ ما أَلِفْتُ ، وخِفْتُ أن أكون كتمتُ عِلْماً يَسَّره الله لى عن طالب عِلْم . ففى كل يوم ينشأ فى الناس طالبُ عِلْم لم يُدرِكْ زمانُه ماكتبتُ وعسيرٌ عليه أن يلتمسَه مع تفرُّقه فى الصحف والمجلات . فمن أَجْل ذلك لم أجدْ بُدّا من الاستجابة لأصحابنا ، راضِيا عنهم ، لائما لنفسى ، معتذِرا عما فَرَط مِنِّى » .

فانتهزتُ فرصة « هذا الرِّضَى » عمن أَسْدَوا إليه هذه النصيحة ، وتَبَيّنِه طريقا كان قد أخطأه ، ثم لاح له لاحِبًا مُسْتَبِبًا ، ففاتحْتُه فى أمر جَمْع المقالات وإخراجِها فى كتاب ، لا لِمَ ذَكَرَه فى تصدير الكتاب فقط ، بل لكى يرى جيلى

---

(١) أباطيل وأسمار « الطبعة الثانية » ١٩٧٢ ، ص : ٢٠٠ .

(٢) نشر الجزء الأول بعنوان أباطل وأسمار سنة ١٩٦٥ ، ثم صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٧٢ عن مطبعة المدنى ، القاهرة .

والأجيالُ التالية كفاحَه فى سبيل أُمَّته منذ بدأ يحمل القلم . ولكن حظى من الإجابة لم يكن بأمثل مما كان منذ ثلاث سنوات ، فأمسكت مرة أخرى .

وفى عام ١٩٦٩ بدأ الأستاذ شاكر سلسلة مقالات فى مجلة المجلة بعنوان « نَمَطٌ صعب ، ونَمَط مخيف » ، نشر أولها فى العدد ١٤٧ ، إبريل ١٩٦٩ ، وآخرها فى العدد ١٥٩ ، مارس ١٩٧٠ . وأيقنت – مخطئا – أنه جامعها ومخرجها فى كتاب . ولكن خاب ظنى (والظن هنا بمعنى اليقين) . لله كيف كان وَقْع هذا اليقين الخاطىء ! فلم تخرج فى كتاب إلا بعد ست وعشرين سنة (١٩٩٦) !

فى صيف عام ١٩٧٨ قبل سفرى إلى الولايات المتحدة لأعمل أستاذا بجامعة أريزونا أخبرنى المرحوم الدكتور محمد رشاد سالم أن النية معقودة على إخراج كتاب يُهْدَى إلى الأستاذ شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ، وطلب منى أن أشارك بفَصْل فيه ، ففعلتُ ، وأوصانى بكتمان الأمر حتى لا يصل إلى سمع الأستاذ ، فامتثلتُ . ولكن الأمر بَلَغ أسماعَه ، وأَدَعُ الدكتور محمد رشاد سالم يحدثك عما وقع : « وكان من المفروض أن يصدر هذا الكتاب منذ سنتين ، إلا أنه بعد أن مضتْ اللجنة فى عملها واتصلتْ بالأساتذة المشاركين ، وتلقَّت عددا كبيرا من المقالات ، عَلِمَ « أبو فهر » بما نحن مُقْدِمون عليه ، فعَرْقَل عَمَلَنا وحَيَّرنا . وكاد أن يرفض المبدأ ، حتى نجحنا فى إقناعه والاتفاق على استمرار اللجنة » [1] .

وقول الدكتور رشاد سالم « فعَرْقَل عملنا وحيَّرنا » كلام فى حاقٍّ موضعه إزاء إعادة نشر الأستاذ شاكر أعماله أو الكتابة عنه . فأما « عرقلة » عملى فى جمع مقالاته فقد ذكرت طَرَفا من ذلك قبلُ وأمسكتُ عن بقية هنا موضعُها . كان الأستاذ شاكر – كما ذكرت – قاسيا عنيفا ، ولكنه كان أيضا رقيقا وديعا ألوفا حنونا ، فلم يشأ أن يقابل ما أردت من الإحسان بالإساءة والنكران ، فقال متلطفا : هذا عمل بالغ التعقيد يتطلب جهدا ووقتا أنت أحوج إليهما حتى تنتهى من رسالتىْ

(١) درسات عربية وإسلامية ، مطبعة المدنى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٠ م .

الماجستير والدكتوراه . أما « الحيرة » فإننى عندما انتهيت من كتابة رسالة الدكتوراه فى ديسمبر سنة ١٩٦٨ رجع الأستاذ إلى إِلْفِه الذى أَلِفَ ولم يأذن لى ، وقال متلطفا أيضا : إنك ستحتاج عما قريب إلى عمل جيّد يمكِّنك من الترقية ، ولن تستطيع أن تنالها بجمع مقالاتى ، هذا فضلا عن بعدها عن مجال تخصصك فى الأدب القديم . فسكت مرة ثالثة على مضض ، ولكنى لم أيأس ، فقد كنت ، ولم أزل ، « صعيديا » مثله .

اضطلع الأستاذ جمعة ياسين جزاه الله خيرا بمشاركته فى كتاب « دراسات عربية وإسلامية » بحصر ماكتب الأستاذ شاكر من مؤلفات وتحقيقات ورتبها حسب زمان صدورها بادئا بسنة ١٩٢٦ ومنتهيا بسنة ١٩٨٢ . فأسدى إلى القراء فضلا عميما ، وكان ذلك عونا لمن كتبوا رسائل جامعية عن الأستاذ محمود شاكر مثل الأستاذ محمود إبراهيم الرضوانى (١٩٩٥) ، والأستاذ عمر حسن القيام (١٩٩٧) ، والأستاذ إبراهيم الكُوفَحى (٢٠٠٠) . أما بالنسبة لى فقد ذُلِّلتْ عقبةٌ كَأْداء ، فقد بات كل شىء تقريبا كَتَبَه الأستاذ شاكر حتى هذا التاريخ معروفا : عنوانه ومكان نشره وتاريخه ، وما علىّ إلا النسخ أو التصوير .

أجمعت أمرى ولممت شتات نفسى وفاتحته مرة رابعة فى صيف ١٩٨٥ فى جمع المقالات ، فمواضعها وتواريخها الآن معروفة ، وقد دلَّ هو بنفسه الأستاذ جمعة ياسين على أكثر أماكنها ، هذه واحدة . نلتُ درجة « أستاذ » عام ١٩٨٠ ، وبذلك لم أعد مضطرا إلى كتابة أبحاث ذات طابع خاص يتصل بمجال تخصصى ، هذه ثانية . فلم يعد ولم يقارب ، وقال « ربنا يسهّل » وعلت وجهه ابتسامة خفيفة ، ونظر إلىّ كالمتعجب من إصرارى على مدى أربعة وعشرين عاما . ومضت السنون ولم يأذن الله بالتسهيل . ولكنى استبشرت خيرا ، فقد كنت أتحسس الأخبار من أخى الأصغر الدكتور فهر ، وعلمت أن الأستاذ شاكر صوّر بعض المقالات وكذلك فعل بأشعاره . ولكن حال الأَجَل دون تحقيق الأمل ، فقد توفى رحمة الله عليه فى ١٩٩٧/٨/٧ .

* * *

- ٢ -

منهج الكتاب

وفى صيف العام التالى فاتحت الأستاذ عبد الرحمن شاكر والسيدة أم فهر والدكتور فهر بعزمى على جمع مقالات الأستاذ شاكر وشعره أيضا فوافقوا شاكرين ممتنِّين . وأعطانى الدكتور فهر كل ما وجده مما جمعه الأستاذ ، فقمت بمقابلته على سرد الأستاذ جمعة ياسين من مؤلفات الأستاذ ، ثم بدأت رحلة شاقة مضنية مع المجلات والصحف التى نشرت فيها المقالات والأشعار ، فاستكملت مانقص ، ثم نظرت فى بعض ملفات الأستاذ الخاصة ، فوجدت مقالة بخط يده وبعض أشعار لم تنشر . فلما استوى لى ذلك كله بدأت بالمقالات ، ورأيت أن أرتبها حسب ورودها فى المجلات والصحف ، فأضع فى مكان واحد كل ما نشر فى مجلة الرسالة مثلا ، ثم مجلة الزهراء مراعيا أثناء ذلك أسبقية تواريخ النشر . وقد وجدت عنتا شديدا فى قراءة المقالات التى نُشِرت فى الصحف كالبلاغ والمقطَّم والدُّستور والأهرام ، فقد طَوَى الأستاذ هذه المقالات نِصفَيْن نِصفيْن ، فتَهَرَّأ مكانُ الطَّى وتآكلَ ، فضاع مايقرب من سَطْرَيْن بعَرْض المقال فى كل صفحة ، ولكننى خلال زيارتى لمكتبة الكونجرس الأمريكى بمدينة واشنطن استطعت أن أحصل على « ميكروفيش » فيه المقالات كاملة واضحة ، فأقمت النصوص ، والحمد لله .

وبعد أن مَضَيْتُ شوطا ، رأى الأستاذ عبد الرحمن شاكر أن أدعَ المقالات إلى حين ، وأبدأ بجمع أشعار الأستاذ شاكر أوَّلا ، وكان له فى ذلك حُجَّة مُقْنِعة ، لستُ فى حِلّ مِن ذكرها ، ففعلتُ ، وقد بيَّنْت طَرَفا مِن ذلك فى مقدمة الديوان . حتى إذا أتممتُ مراجعة الديوان وشرحه والتقديم له ، عكفت على المقالات سنتين أُخريَيْن . ولم يكن ترتيبها حسب المجلات والصحف التى نُشِرت فيها تبعا لأقدمية تواريخها بالأمر السهل . وشاركنى أخى محمد الخانجى هذا العَنَت فى صَبْر وأَناة ، فقد كان يقوم بصَفّ كل مقال أعثر عليه بغضّ النظر عن تاريخه

أو مكان نشره ، ثم عُدْنا بعد ذلك لنضع كلَّ مقال مع مجلته أو صحيفته التى نُشِر بها فى نسق تاريخى ، واستدعى ذلك كثيرا من التقديم والتأخير خاصة فى الجزء الثانى . واضطررت فى أحيان قليلة أن أتخلّى عن هذا النسق التاريخى إذا كانت هناك مجموعة من المقالات فى موضوع واحد تخللها مقال أو أكثر فى موضوع آخر ، فكرهت أن يفرق تاريخ النشر بين تتابع المقالات ، فجعلت هذه المقالات آخذًا بعضها برقاب بعض حِفاظا على وحدة موضوعها .

حاولت جهدى أن أقرأ المقالات بدقة ، فصحَّحتُ بعض مابدا لى فيها من أخطاء ، وعسى ألا أكون قد أخطأت الطريق ، ووضعت التشكيل حيث ظننتُ أنه مُزيل لِلَبْس أو مُعِين على فَهْم ، وشرحتُ بعض ألفاظ ، أوضحتُ بعضَ ما استشهد به الأستاذ مما يجرى مجرى الأمثال ، أو يكون جزء من حديث شريف ، أو غير ذلك . وللأستاذ شاكر شروح قليلة أثبتُّ أمامها اسمه (شاكر) .

وكنت أنوى – لتمام العمل – أن أفعل ثلاثة أشياء ، أولها : أن أكتب مقدمة ضافية ، كما فعلت فى مجموع شعر الأستاذ . ثانيها : أن أترجم لجميع الأعلام الذين وَرَدُوا فى سياق المقالات ، ولو ترجمة موجزة . صحيح أن بعض هذه الأعلام معروفة كالأستاذ سيد قطب والأستاذ مصطفى صادق الرافعى والأستاذ العقاد ، ولكن صحيح أيضا أن بعضها غير معروف خاصة للأجيال التى لم تشهد هذا الزمان مثل الأستاذ صبحى البَصَّام ، والأستاذ محمد رجب البيومى ، أطال الله بقاءه ، والأستاذ محمد عبد السلام القبَّانى وغيرهم . ثالثها : أن أجعل ذيلا للكتاب يَضُمّ المقالات التى نقدت بعض كتابات الأستاذ شاكر ، مثل نقد كتاب طبقات فحول الشعراء للأستاذ سيد صقر رحمه الله ، أو ردت عليه نَقْده ، مثل مقالات الأستاذ سيد قطب بشأن الرافعى والعقاد ، ومقالات الأستاذ بشر فارس ، والأستاذ محمد عبد الغنى حسن وغيرهم كثير .

ولكن الأستاذ محمد الخانجى – لدواعى النشر – رأى أن ذلك سيضيف مايقرب من ثلاثمئة صفحة أخرى ، فتخلّيت عما نَوَيْتُ .

أما المقدمة الضافية ، فسوف أضمّ إليها المقدمَة التى كتبتُها لمجموع شعره « اعْصِفى يارياح وقصائد أخرى » وقد نقَّحتها وزدتُ فيها دراسةً فنية لأسلوب شِعْر الأستاذ شاكر ، فسوف أنشر ذلك جميعا - إن أَذِن الله - فى كتاب مستقلّ . وأما تراجم الأعلام ، فلن تشكِّل عبئا كبيرا للقارىء الذى يريد أن يستزيد ، فأكثرها موجود فى كتاب الزركلى ، والموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة . أما ثالث هذه الأشياء ، فقد أشرتُ فى الهوامش إليها ، وبينّتُ عنوانَ النَّقْد الذى وُجِّه إلى كتابات الأستاذ ، ومكانَ نشره وتاريخَه ليرجع إليه مَن يشاء .

* * *

يقول الأستاذ شاكر رحمه الله فى المقدمة التى صدَّر بها كتابَ الأستاذ سعيد العريان عن « حياة الرافعى » :

« ولو يَسّر الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقا وَفِيًّا ينقُله إلى الناس أحاديثَ وأخبارا وأعمالا - كما يسَّر الله للرافعى - لما أضلَّت العربية مَجْدَ أدبائها وعلمائها ، ولما تفلَّتَ من أدبها عِلْمُ أسرار الأساليب وعلمُ وجوه المعانى التى تَعتِلج فى النفوس وتَرْتِكض فى القلوب حتى يُؤْذَن لها أن تكون أدبا يُصْطَفَى ، وعِلْما يُتَوارَث ، وفنًّا يتبَلَّجُ على سَواد الحياة ، فتُسْفِر عن مَكْنونها متكشِّفَة بارزة تتأنَّق للنفس حتى تستوى بمعانيها وأسرارها على أسباب ودواعى السرور وما قبلُ ومابعدُ » .

ويقول فى كلامه عن ذكرى الرافعى (المقالات : ١٧١) : « إن هذا التراث الذى خلَّفه الرافعى للأدب العربى ، قد جعله الله أمانة بين يدى « سعيد » . فهو يؤدِّى اليوم هذه الأمانة وافيه كاملة لم ينتقص منها شىء - إلا أن يُعْجِزه أن يهتدى إليه أو يقع عليه . وغدا يجد الناس بين أيديهم كلَّ ما كتبه الرافعى حاضرا لم يَضِعْ منه شىء منه ، وكذلك يجد من يريد سبيلَه إلى معرفة الرافعى من قريب وتقديره والحكم إما له وإما عليه » .

فلتَقَرَّ عَيْناً أستاذنا الجليل ، فقد يَسَّر الله لك - كما يَسَّر للرافعى - ابْناً بارًّا

وصديقا وَفِيًّا وتلميذا مَدِينا لك بالفضل يَنْقُل عِلْمك للناس حتى لا تَضِلَّ العربية مَكْنونَ عِلْمك ، ولا فاضلَ أَدبك ، ولا أسرارَ أساليبك ، وحتى يصبح ما خَلَّفْتَ أدبا يُصْطَفَى ، وعِلْما يُتَوارَث ، وخُلُقا يُحْتَذَى ، وهَدْيا لأجيال خَشِيتَ أنت عليها وعورةَ المسالك ومَتالفَ الطريق .

وعسى أن أكون قد أدّيتُ الأمانة - التى اخترتُ أن أحملها بظُلْمى وجهلى - وافية كاملة لم ينقص منها شيء إلا ما أَهْمَلْتُ لعجزى وتقصيرى ، أو لم أقع عليه لسهْوِى وغفلتى ، وتَشتُّتى بين البلاد وغُربتى . ولإخوانى من أهل العلم والفضل سابق شكرى إذا تكرموا علىّ ودلّونى على ماعجزت عن الاهتداء إليه .

وأدعو الله أن ييسر لهذه المقالات علماء شتى ، كُلًّا فى مجال تخصصه ، خاصة فى مجال الفكر السياسى ، والدراسات الاجتماعية . وأُهِيب بالمتخصصين فى اللغويات Linguistics وعلماء اللغة بالنظر فى مقالاته الثلاث عن « علم معانى أصوات الحروف » وآرائه الأخرى المبثوثة فى ثنايا المقالات ، كما فى مقال « الطريق إلى الحق » ، « المُنْطَلِق » ، « وبِشْر أيضا » وغيرها ، ثم بعد ذلك وفوق ذلك مابثه فى « نَمَطٌ صَعْب ونَمْط مخيف » . كما أحثُّ نُقَّاد الأدب على إنعام النظر فى مقالاته الخمس بعنوان « من مذكرات عمر بن أبى ربيعة » ، فهى وإن اعتمدت أشخاصها وبعض أحداثها على حقائق تاريخية ، فهى أَدَبٌ مُنْشِىء Creative Literature . كما أدعوهم إلى تدبُّر مقالاته الثلاث عن « شاعر الحب والفلوات : ذو الرمة » ، فهى نمط فريد من الدراسة ، ليس تاريخا لحياة الشاعر ، وليس تحليلا لشعره ، وإنما هى تَدسُّسٌ فى مشاعره وأحساسيه وآماله وهواجسه ، حتى لكأنك مع الشاعر مع مأساة حُبّه يوما بيوم . كما أدعوهم أيضا إلى التوقّف أمام مقالاته الثلاث « إلى أين ؟ » ، فهى تجمع بين السيرة الذاتية ، وفن « المقال » فى أرفع مناحيه . ثم فَلْيَحُطُّوا الرِّحال لوَقْفَة طويلة أمام مقالاته الثلاث « المتنبى : ليتنى ماعرفتُه » وتحليله الرائع الدقيق لعملية « الإبانة والاستبانة » .

وأنا أدعو النقاد الذين أخذوا بحظّ وافر من الثقافة الغربية - وهم كُثْر ، والحمد لله - للنظر فى كل ذلك حسب أصول النظر الغربى ، لكى يستبين أن

هذا الرجل الفَذّ نَسِيج وَحْدِه قد نَفَذ إلى أسرار نظريات شتى يَحْلو لنا أن ننسبها إلى علماء الغرب وحدهم ، ونستشهد بكلامهم تأييدا لما نقول ، غير ناظرين إلى مرمى ليس أبعد من موضع سجودنا .

* * *

- ٣ -

كلمة واجبة

إذا كانت ظروف النشر قد حالت دون كتابة مقدمة دراسية لهذه المقالات النفيسة ، فلأقتصر هنا على بيان جانب معين فى شخصية الأستاذ شاكر ، وعسى أن يكون فى ذلك بيانٌ لما أسلفته فى « قصة الكتاب » من كراهية الأستاذ شاكر لإعادة نشر شىء سبق له نشره .

حقق الأستاذ شاكر كُتبا معروفة ، وكتب دراسات عن الأدب العربى مذكورة ، ونظم أشعارا فريدة ، خاصة القوس العذراء ، ولكن فعل ذلك كثيرون غيره ، وإن لم يلحقوا به فى هذا المضمار . غير أن أعماله قوبلت بالصمت المُنْكَر زمنا طويلا ، وتوالت الدراساتُ والرسائل الجامعيةُ عن محقِّقِين وكُتّاب وأدباء وشعراء دون الأستاذ شاكر علما وموهبة ، وماكُتِبَ عنه حتى دخوله فى العزلة التى ارتضاها لنفسه سنة ١٩٥٣ لا يعدو أن يكون نقدا لبعض ماكتب أو تقريظا لا يتجاوز أسطرا معدودات ، ولأضرب مثالا واحدا بشعره ، فالشعر أكثر سيرورةً وقُرَّاء من تفسير الطبرى أو طبقات فحول الشعراء . قلت فى مقدمة مجموع شعر الأستاذ شاكر « اعْصِفِى يارياح وقصائد أخرى » ص : ١٣٥ - ١٣٦ مايلى « والعجب كل العجب أن يُهْمَل هذا الشعر حتى الآن . فإن قلتَ : ربما كان ذلك لأنه كان مُفَرَّقا فى مجلتىْ المقتطف والرسالة ، فعَزَّ تيسُّرُه فى أيدى الباحثين . قلتُ : كذلك كان شعر بعض شعراء مدرسة أبوللو الذى عكف عليه الدكتور محمد مندور رحمه الله ، وهم لا يدانون الأستاذ شاكر فى شاعرية أو فكر » . وإذا كان التماسُ هذا الشعر لِتفرُّقِه فى المجالات أمرا عسيرا حال دون دراسته ، فكيف نفسر موقف النُّقَّاد من « القوس العذراء » ، فهى قصيدة طويلة جدا ظهرت أول مرة فى مجلة الكتاب (المجلد ١١ ، عدد فبراير ١٩٥٢) ، وقدم لها الأستاذ عادل الغضبان بكلمة تقريظ قصيرة بعنوان « توطئة » ص : ١٥٤ . وفى عدد مارس ١٩٥٢ من نفس المجلة كتب الأستاذ جمال مرسى بدر كلاما

لايتعدى صفحة واحدة مزج فيه تقريظا بنقد ، قال ص : ٣٨٠ « وقفت طويلا عند ملحمة القوس العذراء للأستاذ الكبير محمود محمد شاكر مأْخُوذا بمحاسن هذه الخريدة الفريدة ، مُمَتِّعا الروح بما حوت من خيال رائع ، ونسيج متين . غير أنى لاحظت فى قليل من أبيات مطلع هذه القصيدة العصماء خَلَلا أَفْقَد نغمها انسجامه » ، ثم أورد ثلاثة أبيات هائية (فقضاها ، رآها ، سَوَّاها) ورأى أن زيادة تفعيلة فيها أخلت بوزن مجزوء الرمل . ثم نشر الأستاذ محمد سعيد المسلم فى نفس المجلة (المجلد ١٢ ، عدد فبراير ١٩٥٣ ، ص : ٢٩٣ - ٢٩٥) نقدا تابع فيه الأستاذ جمال مرسى ، حيث زاد أربعة أبيات من الهائية ، وهى البيت السادس ، وفيه زيادة كلمة ، والبيت التاسع وفيه زيادة كلمة ، والبيتان السابع عشر والثانى والعشرون ، وكلاهما يزيد تفعيلة . ثم أورد الأبيات الثلاثة التالية لذلك وهى (فَداها ، وشاها ، هواها) وعلق عليها قائلا : « فذوقى يقف إزاء هذه الأبيات الثلاثة المُدَوَّرة حائرا ! لا يدرى ! كيف يرجعها إلى أى بحر من بحور علم العروض ؟؟ أتراها بحورا جديدة اخترعها الشاعر ؟ » (ص : ٢٩٤) . وأورد بيتا من اللامية فيه خلل .

ثم نُشِرَت القصيدة فى كتاب مستقل من القطع الصغير سنة ١٩٦٤ ، فكتب عنها أستاذنا المرحوم الدكتور زكى نجيب محمود (مجلة الكتاب العربى ، العدد : ١٥ ، سنة ١٩٦٥ ، ص : ١١ - ١٥) مقالا هو بالمدح والتقريظ أشبه منه بالدرس والتحليل .

فكما ترى لم يكتب شىء جاد عن هذه القصيدة الفريدة طوال ثلاثة عشر عاما من تاريخ نشرها . ثم مضت سبعة عشر عاما أُخَر حتى كتب عنها الدكتور إحسان عباس - أطال الله بقاءه - والدكتور محمد مصطفى هدَّارة ، رحمه الله ، دراستيْن قيمتيْن فى الكتاب الذى أهديناه للأستاذ شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ، وطُبع سنة ١٩٨٢ . ولا أَدْرِى إذا كان الأستاذان الجليلان سيكتبان عن هذه القصيدة لولا الكتاب ؟ لا أدرى ! وقد حاول الدكتور إحسان عباس أن يُعلِّل سبب إهمال الدارسين لها بما فيهم هو نفسه ، وهو تعليل لم أجد فيها مَقْنعا (ص ١٣ - ١٤) .

فهذِى ثلاثون سنة من الإهمال والتغاضى والجحود والنكران لإنتاج علَّامة فذّ ، لم يَجُد الزمن بضَرِيبة له منذ عبد القادر البغدادى .

وليت الأمر من إهمال مُسْتشنَع اقتصر على عِلْم الأستاذ شاكر وجهوده فى ميادين التحقيق والأدب والشعر ، بل تعداه إلى ماهو أشد وأنكى وأبشع ، تعداه إلى كفاحه الطويل وجهاده العنيد فى شمم وإباء وعزم ومضاء فى سبيل أمته العربية : أرضها ، ووحدتها ، وحريتها ، وقوميتها ، ودينها ولغتها . فهو كما قال عن نفسه بحق - ونقلت ذلك فى صدر هذا التقديم - إنه جندى من جنود العربية ، نصب نفسه للدفاع عن أمته .

دافع عن مصر دفاعا مجيدا وهاجم ساستها هجوما عنيفا ، واتهمهم بأنهم صنائع بريطانيا ، شَنَّ عليهم وعليها غارة شَعْواء ، وتمسَّك بشِعار فتى مصر مصطفى كامل رحمه الله « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » . يقول الأستاذ شاكر مخاطبا من اختاروا حَلَّ القضية المصرية عن طريق التفاوض مع بريطانيا « وليعلم هؤلاء المفاوضون أنهم لا يملكون التصرف فى رقاب أهل مصر الحاضرين ، ولا فى رقاب الأجيال الآتية ، وأنهم وإن كانوا مصريين كراما ، إلا أن مصر خالدة على وجه الدهر ، وهى أكرم على أبنائها ورجالها الآتين ... ونحن الشباب الناشىء نعرف أن الحياة لا معنى لها إذا خلت من الشرف والكرامة ، وأن الشرف والكرامة عندئذ هى الموت . فَلْنَمُت كراما صادقين ، فذلك خير من أن نعيش أذلّاء مُسْتَعْبَدِين »[1] .

ونافح عن قضية وادى النيل ، فهو مصرى سودانى ، وإن شئت سودانى مصرى ، يقول واصفا العلاقة بين شطرى الوادى « فالحقيقة التى ينبغى أن لا نتمارَى فيها بالعصبية أو الكبرياء هى أن السودان سيد هذا الوادى الذى يمده النيل بمائه . وإذن فالسودان هو أحق الشقيقين باسم الدولة ، فإما أن يسمى وادى

---

(١) « اسلــمى يامصر » ، مجلة الرسالة ، العدد ٦٩٤ ، سنة ١٩٤٦ ، ص ١١٥٩ ، والمقالات ١ : ٣١٣ .

النيل كله باسم الدولة المصرية برضَى أهل السودان ، أو أن يسمى هذا الوادى باسم الدولة السودانية برضى أهل مصر » [١] . لذلك انتقد ساسة مصر والسودان الذين قبلوا أن يفصلوا بين قضية مصر وقضية السودان ، فقد كان من سياسة بريطانيا قديما أن تمزق وحدة شعب وادى النيل ، فأوجدت رجالا يتطلعون إلى مناصب الحكم كما يتطلع الظمآن إلى الماء . وكان من سياسة بريطانيا أن تلاين وتساير حتى يصبح السودان شيئا قائما بذاته وقضية منفصلة عن قضية مصر . « وكان من سياستها أن تُغْرِى شهوات قوم من أهل السودان بالحكم أو السلطان ، ففعلت ، وانقسمت فئةٌ من أبنائه مُضَلَّلين بوعود كاذبة لم تتحقق . وخرجت عن بقية الشعب مؤُزَّرَةً بالمال فَفَجَرت ومَرَدَتْ ، وبريطانيا من ورائهم تنفُخ فى نيرانهم حتى يأتى اليوم الذى يجعلونهم فيه حَرْبا على بلادهم وهم يظنون أنهم يفعلون لخيرها وفلاحها » [٢] . لذلك دعا شعبَ مصر والسودان إلى تأبييد الوفد المصرى السودانى الذى سيَعْرِض القضية المصرية السودانية على مجلس الأمن ، وإن لم تجتمع لأعضاء هذا الوفد الصفاتُ التى ينبغى أن تجتمع لوفد مثله ، « لأن الشعب المصريَّ السودانى شعب كريم ذكيُّ الفؤاد ، تجتمع قلوبُه عند المحنة يدا واحدة على عدوِّه الباغى إليه الغوائل » [٣] . ومن ثم فقد وجَّه نداء إلى السيد المهدى أن يضع يده فى يد أخيه السيد الميرغنى ويخرجا على بريطانيا مرة واحدة ، ويعلنان أن مصر والسودان أُمَّة واحدة ، وأن بريطانيا كاذبة فيما ادّعت علينا وعليهم ، وأن لا حياة لأحد الشطرين إذا اقتطع عن صاحبه [٤] .

---

(١) « مصر هى السودان » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٠٨ ، سنة ١٩٤٧ ، ص ١٠٥ ، المقالات ١ : ٣٥٧ .

(٢) « قضى الأمر » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٢٦ ، سنة ١٩٤٧ ص : ٦٠٨ ، المقالات ١ : ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) « شهر النصر » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٣٤ ، سنة ١٩٤٧ ، ص : ٨٣٦ ، المقالات ١ : ٤٢٥ .

ووادى النيل – مصر والسودان – هو البلد الذى وُلِد فيه الأستاذ شاكر ، وعاش فى شطره الثانى والده الشيخُ محمد شاكر أربع سنوات تولى فيها منصب قاضى القضاة ، ولكن وادى النيل ماهو إلا جزء لا يتجزأ من الأمة العربية . والأستاذ شاكر مؤمن بهذه الأُمَّة وبوحدتها واستقلالها « لا يحتلُّ عراقَها جنديٌّ واحد ، ولا تخضع جزيرتها لسلطان ملوك البترول [1] ، ولا ينال نيلَها من منبعه إلى مصبه سلطانٌ بريطانى أو غير بريطانى . ولا تقع شامُها ولُبْنانها تحت سطوة غاصِب ، ولا يعبث فى أرجها مَغْرِبها فرنسى خبيثُ القول والفعل مجنونُ الإرادة . هذا كلُّه شيء لا يملك كائنٌ مَن كان أن يُجْبِرنا على خِلافه أو على الرِّضَى بِه » [2] .

« وينبغى أن لا نرضى منذ اليوم أن نُفَرِّق قضيةَ العرب ونجعلها قضايا ممزَّقة : هذه قضية مصر والسودان ، وتلك قضية فلسطين ، والأخرى قضية طرابلس وبرقة ، والرابعة قضية تونس ، والخامسة قضية الجزائر ، والسادسة قضية مراكش ، والسابعة قضية العراق . بل إن هذه القضايا كلها قضية واحدة لا تنفكّ منها واحدة عن أختها أبدًا » [3] .

والأُمَّة العربية أيضا جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية . فأهمَّه ما تتعرَّض له البلادُ الإسلامية من البلاء ، يقول عن باكستان « انظروا فهذه دولة باكستان ، قد اجتمعت فيها كلمة المسلمين على أن يكونوا أمة عدتها مئة مليون ، فإذا عُبَّاد البُدّ (بوذا) قد دمروا عليهم من كل مكان يذبحونهم ويقتلونهم ويفتكون بالنساء

---

(١) لا يعنى الأستاذ شاكر حكام البلاد ، فيما أخبرنى ، وإنما هؤلاء الأجانب الذين يأخذون بترول بلادنا ليديروا بها مصانعهم لتغزو منتوجاتها أسواقنا . ولكن انظر ١ : ٤١٦ .

(٢) « شعب واحد وقضية واحدة » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٣٠ ، سنة ١٩٤٧ ، ص : ٧٢٣ ، والمقالات ١ : ٤١٢ ، وانظر أيضا العدد ٧٣٢ من الرسالة ، سنة ١٩٤٧ ، ص ٧٧٧ ، والمقالات ١ : ٤١٥ ، ومواضع أخرى كثيرة .

(٣) المقالات ١ : ٤١٣ .

والأطفال ... وانظروا ، فهذه أندونيسيا تجمع هيئة الأمم المتحدة على تركها فريسة الطغاة البغاة من شِرْذِمَة الخلق الذين يسمون بالهولنديين » (١) .

أما قضية فلسطين ، فكانت شغله الشاغل ، وكان يعتبرها فِلْذَة أكباد العرب (٢) ويسميها « أم المشاكل العربية » (٣) .

وكان يرقب مايجرى منذ وعد بلفور فيرى أنذال الأمم يطأون ديارها بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم أخذوا يسيلون عليها منذ ذلك اليوم لإنشاء دولة يهودية فى ربوعها بعد طرد أهلها العرب . ويرى أمريكا تعين اليهود بالمال واللسان والقلب ، ويرى بريطانيا تسهل هجرة آلاف اليهود سرا إلى ربوع فلسطين (٤) ، وتصبر على إذلال اليهود لها صبرا لم يعرفه تاريخ دولة عظمى . ويرى الدول الكبرى تلوذ بالصمت وتغمض عيونها مما ترى ، فلا تتحرك دفاعا عن الحرية أو الهضيمة التى تراد بإنسانية شعب فلسطين العربى . كان الأستاذ شاكر يرى كل هذا ، والعالم العربى الإسلامى ساكن قار ، لا يملك إلا الإستنكار . وكان الأستاذ شاكر يرى إلى أين ستصير الأمور ببصره النافذ وبصيرته المتوقدة ، فكتب مقالا

---

(١) « نحن العرب » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٢٠ ، سنة ١٩٤٧ ، والمقالات ١ : ٣٨٤ .

(٢) « لبيك يا فلسطين » ، المقالات ١ : ٤٨١ .

(٣) « ويحكموا هُبّوا » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٥٧ ، سنة ١٩٤٨ ، والمقالات ١ : ٤٩٨ .

(٤) من أوفى الدراسات المدعمة بالوثائق عن دور بريطانيا فى تهويد فلسطين هى دراسة الدكتور على أبو الحسن بعنوان : دور بريطانيا فى تهويد فلسطين : أقذر دور فى التاريخ . نشر دار الوحدة العربية بيروت ١٩٧٧ . وبتوَلّى السير آرثر وشوب Sir Arther Wauchope أصبحت هجرة اليهود « غزوا » ففى سنة ١٩٣٢ سمح بهجرة ٩٥٥٣ يهوديا ، وسنة ١٩٣٣ : ٣٠٫٣٢٧ يهوديا ، وفى سنة ١٩٣٤ : ٤٢٫٣٥٩ يهوديا ، وفى سنة ١٩٣٥ : ٦١٫٨٥٤ يهوديا ، أى ١٤٤٫٩٣ يهوديا فى خلال أربع سنوات . انظر فصلا بعنوان The Dark Path of Repression فى كتاب Nevill Barbour, Nisi Dominus: Asurvey of the Palestine Controversy (London : George G. Harrap and Company limited, 1948), pp. 188-93

ومن أفضل الكتب الأجنبية عن مأساة فلسطين ودور بريطانيا المخزى كتاب ضخم بقلم الكاتب البريطانى المنصف ج جفريز ، ترجمه فى أربعة أجزاء الأستاذ أحمد خليل الحاج ، ونشرته دائرة الثقافة والإعلام حكومة الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٠ .

سنة ١٩٤٦ - أى قبل قرار التقسيم بعام - بعنوان « من وراء حجاب » . جَهَدَه التعبُ ليلة فتَغشَّته نَعْسَة ، وسَبَح فى غَمْرة رؤيا ، وإذا به يُفْضِى فى غَمْرَة هذه الرؤيا إلى مقصورة فى مسجد ، هى مقصورة أبى جعفر الطبرى ، كان الشيخ نائما فهاب الأستاذ شاكر أن يُوقظه ، ونظر حوله فرأى أوراقا كتبها تَتِمَّة لتاريخه المعروف باسم « تاريخ الأمم والملوك » . فتناولها الأستاذ شاكر فإذا بها تبدأ من سنة ١٣٦٥ هجرية (الموافق ١٩٤٦ ميلادية) . وهذه هى أول التتمة :

[ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف] ، ١٩٤٦ .

ذكر ماكان فيها من الأحداث : فمن ذلك إجماع المجلسين الأمريكيين على فتح فلسطين لشذاذ المهاجرين من اليهود . وكتب إلىّ السُدِّى ، وهو مقيم هناك بأمريكا ، أن موقف الرئيس ترومان الذى ادّعاه من إيثاره العقل على الهوى فى هذا الأمر ، إنما كان حيلة مَخْبُوءة أراد أن يغرر بالبلاد العربية والإسلامية ، ثم يفاجئها بحقيقته . وهو فى ذلك إنما يعمل للظفر بمعونة اليهود فى الانتخاب الآتى للرياسة . ولما كان هواه هو الذى يُصَرِّفه ، فقد علم أنه طامع فى الرياسة حريص عليها ، وأن اليهود فى أمريكا هم أهل المال ، أى أهل السلطان ، أى هم الأنصار الذين إذا خذلوه ضاع . قال السُدِّى : وقد سمعت بعض أهل العقل والرأى فى أمريكا يستنكرون ماكان منه ومن قرار مجلسيه ، ويَرَوْن أن الديمقراطية اليوم قد صارت كلمة يراد بها التدليس على عقول البشر ليبلغ بها القوِىّ مأربه من الضعيف المغرور بهذه الرقية الساحرة التى يُدَنْدِنُون بها فى الآذان . وقد أخبرنى الثقة أن الرئيس ترومان قد أوحى إلى بعض بطانة السوء أن العرب والمسلمين قوم أهل غفلة ، وأن دينهم يأمرهم بالصبر ويُلِحّ فيه ، فهم لا يلبثون أن يستكينوا للأمر إذا وقع ، ولا يجدون فى أنفسهم القدرة على تغييره أو الانتقاص منه ، وأن الزمن إذا تطاول عليهم فى شىء أَلِفوه ولم ينكروه ، فإذا دام دخول اليهود فلسطين وبقى الأمر مُسنَدا إلى الدولة المنتدبة (وهى بريطانيا) ، وانفسح لحمقى اليهود مجال الدعوى والعمل والتبجّح ، وأَلَحَّ على العرب دائما إجماعُ الدنيا كلها (أى الديمقراطية) بأن الدولة اليهودية فى فلسطين حقيقة ينبغى أن تكون وأن تتم كما

أراد الله ، فيومئذ يُلْقِي العرب السَّلَم ولا يزالون مختلفين حتى ينشأ ناشِئهم على إِلْف شيء قد صبر عليه آباؤه ، فلا يكون لأحد منهم أدنى همة فى تغيير ما أراد الله أن يكون ، مما صبر عليه آباؤهم وأسلافهم - وهم عند العرب والمسلمين - أهل القدوة » .

[ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمئة بعد الألف] ، ١٩٤٧ .

ذكر ما كان فيها من الأحداث : فمن ذلك ماكان من اجتماع ملوك العرب وأمرائهم ووزرائهم ... وقَرَّ قرارهم على أن يعلنوا للناس جميعا وينذرونهم بما رأوا وأجمعوا عليه ... الثانى : أن فلسطين ستجاهد ، ومن ورائها بلاد العرب والمسلمين تظاهرها بالمال والولد . الثالث : أن الفتك والغدر والاغتيال ليس من شيمة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاغتيال الشنيعة المنكرة التى اقترفها اليهود ينبغى أن تقابل بالصدق والصراحة ، لا بالغيلة والغدر » .

[ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمئة بعد الألف] ، ١٩٤٩ م .

ذكر ماكان فيها من الأحداث : اشتعلت نيران الحروب فى الشرق كله ، واجتمع رؤساء الدول العربية والإسلامية فى مكة المكرمة ووحَّدوا قيادة الجيوش العربية . ولكن لم يلبث سفير بريطانيا فى مصر وسفير أمريكا أن أرسلا برقية إلى المجتمعين فى مكة يطلبون وَقْف الحركات الحربية التى سموها (ثورة) ، ورغَّبوا إلى ملوك العرب ووزرائهم أن يتمهلوا حتى يصدر تصريح مشترك من الدولتين الكبيرتين ، على شريطة أن تمتنع البلاد العربية من متابعة السياسية الروسية التى تتظاهر بمؤازرة العرب والمسلمين . وبعد أيام صدر هذا التصريح ، وهو ينص على أن للعرب ما أرادوا من وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وعلى العرب أن يتولوا بأنفسهم مفاوضة يهود فلسطين على السياسة التى يريدونها ، وأن بريطانيا وأمريكا لن تتدخلا فى الخلاف الناشب بين الفريقين ، وأن الدولتين الكبيرتين ستمنعان كل مساعدة تُرْسَل من بلادهما إلى فلسطين من مال أو سلاح ... » .

[ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمئة بعد الألف] ، ١٩٥٥ م .

ذكر ماكان فيها من الأحداث : كثرت حوادث الاغتيال والفتك فى كثير

من البلاد العربية والأجنبية ، وقتل من العرب وأنصار العرب من سائر الأمم خلق كثير ، واستفحل الشر استفحالا عظيما ، حتى ثارت الصحف الإنجليزية والأمريكية وطالبت حكوماتها بإعلان قرار واحد بأن الرأى العام والسياسة العامة فى سبيل السلام تقتضى أن تُبْذَل النصرة الكاملة للعرب وللقضية العربية ، وأن تتعاون الدول على رد العُدْوان الصهيونى الذى صار طغيانا شديدا فى جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغى على الدول جميعا أن تضحى فى سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهى قيود اليهودية التى جعلت كل الأمم ترسف فى أغلالها » .

هذا الكلام – على طوله – مختصَر من هذا المقال الفريد الذى اخترق به الأستاذ شاكر حُجُبَ الغيب ، وجعله حقيقة لامراء فيها بجعله أحداثا ماضية سلفت أتم بها شيخ المؤرخين تاريخه . ولأُذكِرنَّ القارىء مرة أخرى أن هذا المقال كتبه الأستاذ شاكر سنة ١٩٤٦ .

فكلام الأستاذ شاكر عن موقف الرئيس ترومان وأهمية أصوات اليهود فى انتخابات الرئاسة صحيح لا ريب فيه ، وتسهيل أمريكا مع بريطانيا هجرة يهود أمريكا كلام لا باطل فيه . وقد تصدَّى الرئيس ترومان لمحاولة إنجلترا – بعد إعلان قرار انتهاء حماية بريطانيا على فلسطين – بوضع قيود على هجرة اليهود (وياللسخرية) . وأنا أُحيل القارىء هنا إلى كتاب فرانسيس وليمز [١] الذى أورد فيه الرسائل المتبادلة من الرئيس ترومان ورئيس وزراء بريطانيا وِنْستون تشرشل (مع أن تشرشل كان صهيونيا حتى النخاع) ليرى مدى دفاع ترومان عن هجرة يهود العالم لا أمريكا فقط إلى فلسطين . وبالرغم من أن وزارة الخارجية الأمريكية آنذاك كانت دوما تنصح الرئيس ترومان بعدم اتخاذ موقف متشدد من هذا الأمر ، إلا أنه جعل نصح مستشاريه دَبْر أُذنه . فقد كانت أصوات اليهود فى الانتخابات تستحوذ على نفسه وفكره وفؤاده . فأكد ترومان لِوَيْزمان Weizmann خلال زيارته لأمريكا أنه سيبذل ما فى وسعه لإنشاء الدولة اليهودية والاعتراف بها ، وأن

(1) Francis Wiliams. A Pime Minister Remember : The War and Post - War Memoirs of the Rt. Hon. Earl Attlee (London : Heinemann, 1961), pp. 181-201.

« النجف » - تكون جزء من الدولة اليهودية[1]. وفى الرابع من أكتوبر سنة ١٩٤٦ أيَّد الرئيس ترومان فى إعلان يوم كيبور ضَمَّ النجف إلى الدولة اليهودية (لاحظ أن الدولة اليهودية لم تكن قد تكونت بعد، وحين صدر قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ لم يجعل هذا القرار النجف جزءاً من الدولة اليهودية) وإنشاء ثلاث عشرة مستعمرة زراعية فى النجف[2]. وفى خلال أسبوعين من هذا الإعلان ضمت القوات اليهودية « النجف » إليها وبلغ من استهانة ترومان بالعرب وتملقه ليهود أمريكا أنه أذاع هذا الإعلان فى يوم من أيام اليهود الدينية وهو يوم كيبور، ولم يكتف بوَعْده أن تكون صحراء النجف جزءاً من الدولة اليهودية، بل تجاسر فى جرأة وقحة فرسم خريطة الدولة اليهودية المرتقبة لتضم تسع مناطق من مناطق فلسطين السِّت عشرة : بيسان (٧٠٪ من سكانها عرب)، عَكّا (٩٦٪ من سكانها عرب)، طبرية (٦٧٪ من سكانها عرب)، صفد (٨٧٪ من سكانها عرب)، حيفا (٥٣٪ من سكانها عرب)، الناصرة (٨٤٪ من سكانها عرب)، يافا (٢٩٪ من سكانها عرب)، غزة (٩٨٪ من سكانها عرب)، بئر سبع (٩٩٪ من سكانها عرب). بالإضافة إلى ذلك من الممكن أن تضم الدولة اليهودية أيضا منطقتين أخريين : طولكرم (٨٣٪ من سكانها عرب). ورام الله (٧٨٪ من سكانها عرب)، علاوة على جزء من مقاطعة هبرون (٩٦٪ من سكانها عرب). ومعنى ذلك أن لا يبقى للفلسطينيين سوى ثلاث مناطق. ومعناه أيضا أن ٧٥٪ من مساحة الأراضى الفلسطينية يسيطر عليها اليهود فى الوقت الذى كانوا لا يملكون سوى ٧٪ من الأرض. وفى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ أرسل إلياهو إيثال ممثل الوكالة اليهودية فى الولايات المتحدة بصفته ممثلا « للدولة اليهودية » (لاحِظ هنا أيضا أن الدولة اليهودية لم تُخْلَق رسميا بعد) رسالةً إلى البيت الأبيض يطالبه فيها بالاعتراف بالدولة اليهودية، وما هى إلا ساعات، وبالضبط فى الساعة الخامسة

---

(1) M.W. Weisgal and L. Carmichael, eds., Chairman Weizmann: ABiography by Several Hands (London: Weidenfeld and Nicholson, 1962). PP. 303 - 308.

(2) Ibid, pp. 301 - 303

والدقيقة السادسة عشرة من شهر مايو سنة ١٩٤٨ أعلنت الولايات المتحدة على لسان رئيسها ترومـان الاعتراف بالدولة اليهودية (١) . ولا يغيب عن فطنة القارىء أن عام ١٩٤٨ كان عام انتخابات الرئاسة الأمريكية .

ثم حمل الأستاذ شاكر على العرب وأوروبا وأمريكا بأسلوبه الساحر المعهود . أما العرب فهم كما قال قُرَيْط بن أُنَيْف :

لكنَّ قَوْمِي وإنْ كانوا ذَوِي عددٍ
ليسوا مِن الشرِّ فى شىءٍ وإنْ هانا

فقد أجمع ملوكهم وأمراؤهم ووزاؤهم أن « الفتك والغدر والاغتيال ليس من شيمة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاغتيال الشنيعة المنكرة التى اقترفها اليهود ينبغى أن تُقابَل بالصدق والصراحة » . نعم يجب أن تُقابَل بصدق المستضعفين وصراحة الأذلاء الغافلين . فالعرب لن يغتالوا اليهود فى مدنهم وقراهم ولن يفعلوا فعل اليهود فى دير ياسين(*) فى ١٠ ابريل ١٩٤٨ حيث قضت عصابة الأرجون فى مذبحة بشعة على كل سكان القرية البالغ عددهم ٤٠٠ شخصا لا يحملون سلاحا (٢) . ولن يتدنى العرب ويرتكبوا ما ارتكبه اليهود فى قرية كولونيا يوم ١٢ إبريل ١٩٤٨ ، ففى خلال نصف ساعة فقط حسب رواية شاهد عيان هرب أكثر أهل القرية تحت نيران عصابة بالماخ Palmach فنجا منهم من نجا وقتل من لم تسعفه قوته أو سِنّه على الفرار (٣) . ولن يهاجموا غيلة المدن

(1) Walid Khalidi. From Haven to Conquest (Washington: The Institute for Palestine Studies, 1987), p. ixxxii

وهذا كتاب نفيس ، ولا أدرى إذا كان قد ترجم إلى العربية أم لا ، فإذا لم يكن فَلْيترجَم .

(*) المصادر عن مذبحة دير ياسين وغيرها مما ذكرته كثيرة ، ولكنى هنا أستشهد بما كتبه شهود العيان .

(2) Jacaues de Reynier, A Jerusalem un drapeau Flottait sur la ligne defeu (Neuchatel : Editious de la Baconniere, 1950), pp. 69 - 79.

(3) Harry Levin, Jerusalem Embattled: A Diary of the City Under Siege, Mach 25th, 1948 to July 18th, 1948 (London : Victor GoLLancz Ltd., 1950)pp. 64-67.

التى ينسحب منها البريطانيون نظرا لانتهاء مدة الانتداب ، كما فعل اليهود وهاجموا يافا واستولوا عليها يوم ٢١ إبريل ١٩٤٨ [١] ونهبوا كل ما وقعت عليه أعينهم فى المحال والمنازل [٢] .

ثم يسخر الأستاذ شاكر من ضعف العرب وتشتتهم وعدم يقظتهم لما يراد بهم ، فهل صحيح أن رؤساء الدول العربية « وحّدوا قيادة الجيوش العربية » ، وبذلك شكّلوا خطرا محققا تُخْشَى مَغبّته على يهود فلسطين ، جعل بريطانيا وأمريكا تسارعان وترجوان العرب وقف « الحركات الحربية » حتى يتدبرا الأمر وسوف يكون فى ذلك مَرْضاة للعرب ؟ وبالفعل بعد أيام أصدرتا تصريحا أعلنتا فيه « إن للعرب ما أرادوا من وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ... وأن الدولتين الكبيرتين ستمنعان كل مساعدة ترسل من بلادهما إلى فلسطين من مال أو سلاح » . فجيش التحرير العربى الذى أرسلته الجامعة العربية كان لا يضارع جيش الصهيونين عددا أو عُدَّة وسلاحا . ثم أين كان ملوك العرب وأمراؤهم عندما كان اليهود يقومون بتنظيم قواتهم المحاربة . ومن يقرأ التقرير الذى أعدته لجنة تقصى الحقائق الإنجليزية الأمريكية [٣] The Anglo-American Committee of Inquiry سنة ١٩٤٦ يرى مدى القوة العسكرية اليهودية ، يذكر التقرير أن التنظيم العسكرى المعروف بالهجاناه Hagana كان يتكون من :

١ – أربعين ألف مستوطن يهودى .

٢ – جيش مدرب ذى كفاءة عالية فى الحركة السريعة قوامه ستة عشر ألف جندى .

٣ – قوة حرس مستديمة وهى البالماخ Palmach قوامها ألفا حارس للمحافظة

---

(1) Roland Dare Wilson, Cordon and Search : With 6th Airborn Division in Palestine (Aldershot: Gale and Polden Limited, 1949), pp. 191-199.

(2) Jon Kimche, Seven Fallen Pillars : The Middle East 1915 - 1950 (London: Secker and Warburg, 1950), pp. 217-218.

(3) see the chapter entitled "The Zionist Military Organization 1946 quoted from the Report of the Anglo-American Committee of Enquiry : From Haven to Conquest, PP. 595 - 600

على السلام وستة آلاف مدربين تدريبا عسكريا عاليا . ولكن هذا التقرير - كما لاحظ الأستاذ وليد الخالدى - أهمل جزء هاما من تنظيم الهجاناه وهو شرطة المستعمرات اليهودية Jewish Settlement Police ، وقوامها ١٥٫٤١٠ شرطيا . وكانت القوات البريطانية تقوم بتدريبهم ، وكلما تم تدريب مجموعة منهم ضمتها الهجاناه إلى صفوفها ، واستبدلت بهم آخرين ، فتقوم القوات البريطانية بتدريب هذه المجموعة الجديدة دون أن تنتبه لما يحيكه تنظيم الهجاناه [1] .

ثم يسخر الأستاذ شاكر أيضا من غفلة ملوك العرب واحتسابهم أن الدول الأوروبية وأمريكا وصحافتهما متعاطفة جميعا مع القضية العربية وأن هناك خيرا يرجى منها جميعا إذا دخلوا معهم فى حوار ومفاوضات ، خاصة أن الصحف الإنجليزية والأمريكية ثارت لأنه « قُتِل من العرب وأنصار العرب من سائر الأمم خلق كثير » وطالبت حكومتيهما « رد العدوان الصهيونى الذى طَغَى طغيانا شديدا فى جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغى أن على الدول جميعا أن تضحى فى سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهى قيود اليهودية التى جعلت كل الأمم ترسف فى أغلالها » . وبطبيعة الحال لم تَثُر الصحف البريطانية ولا الأمريكية بسبب اغتيال أنصار العرب ، ولعل خير مثال على ذلك هو اغتيال الكونت برنادوت Count Folke Bernadotte ممثل الأمم المتحدة . فقد كان برنادوت يرى أن خطة التقسيم فيها إجحاف للجانب العربى واقترح إدخال بعض التعديلات ، فحشدت القوى الصهيونية كل قواها الإعلامية والسياسية فى أوروبا وأمريكا لشَنِّ هجوم لا رحمه فيه ولا هوادة . وفى زيارة له لفلسطين موفدا من قبل الأمم المتحدة أعد الصهيونيون لسيارته وسيارة الوفد المرافق له كمينا (١٧ سبتمبر ١٩٤٨) وأطلقوا عليه الرصاص فأردوه قتيلا ، ويعلق صديقه الجنرال آجى لَنْدستروم الذى كان يرافقه فى مهمته على هذا الحادث بقوله : « أنا على يقين أن الاغتيال كان متعمدا ، وخُطِّط له بعناية ، فالمكان الذى أوقفوا فيه سيارتنا اختير بعد تدبر ،

(1) Ibid, p. Lxxviii

والجنود الذين اندفعوا نحو السيارة ، لم يكونوا يعرفون أى سيارة يستقلها فقط ، بل كانوا أيضا يعرفون أين كان يجلس وأى مقعد كان يحتّل » [1] .

وبطبيعة الحال لا تستطيع دول العالم « أن تضحّى فى سبيل ذلك (أى ردّ العُدْوان الصهيونى) بكثير من المصالح المالية » . فاليهودية العالمية قد سيطرت على أكثر المؤسسات المالية فى الدول التى تعيش فيها وتنتمى إليها .

وكما يرى القارىء من هذا العرض الموجز – الوافى إن شاء الله – أن الأستاذ شاكر قد تنبأ سنة ١٩٤٦ بما سوف يحدث خلال السنوات التى تلت هذه السنة فكأنما « كُشِف عنه الحجاب » . فتنبُّه الرجل وفطنتُه ، تتبُّعه اليقظ لما يرى من أحداث واستماتته فى الدفاع عن أمته جعله يعلق الأسباب بالنتائج ، ويرى ماهو آت لأنه أحدَّ إليه البصر منذ بدأ ناشئا لا يكاد يُرَى ، فما زاغ البصر وما كذب الفؤاد ما رأى .

وحتى لا تخرج هذه الكلمة الواجبة عن القصد فسوف أكتفى ببيان هذا القدر من جهاد الأستاذ شاكر فى سبيل قضية مصر وقضية مصر والسودان ، وقضايا الأمة العربية خاصة فلسطين ، وقضايا العالم الإسلامى ، ولن يفوت القارىء بأيسر نظر فى هذه المقالات الجهاد الذى خاضه الأستاذ شاكر فى سبيل الحرية ، والحضارة العربية والإسلامية ، وفى هجومه على الحضارة الغربية ، والدول الأوربية وأمريكا والأمم المتحدة ، لا يملّ ولا ييأس رغم التدهور الذى كان يزداد يوما بعد يوم . كان عظيم الثقة بالأمة العربية وحضارتها ، وأنها لا جرم منبعثة مرة أخرى لترث سائد الحضارات ، وتسود العالم كما سادته من قبل .

ولما كانت مصر أقوى الدول العربية وأكثرها تقدُّما ، وكانت هى البلد الذى يعيش فيه الأستاذ شاكر ، فقد أرَّقه ما آل إليه أمرها من الاضمحلال والفساد وما اعتراها من الضعف والوهن ، وما ترزح تحته من أعباء الاحتلال ، وترسف فى القيود والأغلال التى ربضت بها إلى الأرض فما تطيق حراكا . فصلاح مصر

---

(1) General Aage Lundstrom, the Death of Count Folke Bernadotte. Quoted in Haven to Conquest, op. cit., pp. 789 - 794.

وقوتها صلاحٌ للأمة العربية وشدٌّ لأَزْرها . أيقن الأستاذ شاكر أن هذا الإصلاح فى كافة مجالاته « موقوف على شىء واحد ، على ظهور الرجل الذى ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلوم ، يحمل فى رجولته السِّراج الوهَّاج المشتعل من كل نواحيه ، الرجل المصبوب فى أَجْلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كلها ، وآلام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحىّ المتحرك على هذه الأرض الذى يسمى فى اللغة : الإنسان »[١] . كتب هذا الكلام فى أعقاب ثلاث مقالات كتبها الدكتور هيكل والدكتور طه حسين والأستاذ أحمد حسن الزيات ، وبلغ من ازدراء الدكتور طه لحالة الفساد التى انتشرت فى مصر أن اقترح ساخرا إنشاء « مدرسة المروءة » حتى يتعلم جيل ذلك الزمان غير ما نشأ عليه من سفاسِف الأخلاق ، وتحطّمت عنده مكارمُ الإنسانية النبيلة ، وامتاز عظماؤه وصغاره باعتبار الأخلاق ضربا من التجاره يُلَبِّسها الغشّ والخِلاب والمواربة . ولكن الأستاذ محمود شاكر رأى أن التهكم فى هذا الزمن المائج بصنوف العذاب والآلام والبلاء لا يجدى فى الإصلاح شيئا ، وإنما الإصلاح موقوف على خروج رجل فرد من عُرْض الشعب عانى ما يعانيه الناس آنذاك . ثم كتب الأستاذ محمود المنجورى مقالا[٢] فى العام (سنة ١٩٤٠) الذى نُشِرت فيه المقالات السالفة الذكر تحدث فيه عن عهد الاحتلال وما صنعت سياسته فى أخلاق مصر وتعليمها ، وكيف حطم بجوره وعُدْوانه كل الصلات القوية التى يعتمد عليها ترابط الكيان الاجتماعى ، فتمزقت الجهود المصرية فى الإصلاح ، واستبدت الشهوات الجارفة بأخلاق الطبقات على اختلاف مراتبها ، ففشل الاجتماع المصرى فى إرادته ، وقام على أساس فاسد من الأخلاق حتى صار أكثر ما يرمى إليه كل شخص غرضا فرديا لا سَهْمَ له فى البناء الاجتماعى للأمة ، ومن هنا استبدّ مَن آنس فى نفسه قوّة ، فصار كل فرد بأنانيته

(١) من مقاله بعنوان « الإصلاح الاجتماعى » المنشور بمجلة الرسالة ، عام ١٩٤٠ ، انظر المقالات ١ : ٥٤ - ٥٥ .

(٢) نشر فى « السياسة الأسبوعية » ، العدد ١٥٥ ، سنة ١٩٤٠ .

يريد هدم عمل الأوّل لينفرد بالأحدوثة والصِّيت . وامتدت هذه العدوى إلى الحكومات المصرية التى تعاقبت فشَرَعت ووَعَدت وسارت ، ثم خَلَفتْها أختُها لتنقض كل ذلك وتبدأ من جديد بلجانها ومشروعاتها ، وهكذا دواليك . ويتعجب من ذلك الأستاذ شاكر متساءلا « فهل فى الذين يصير إليهم السلطان الوازع العامل من يستطيع أن يتجرّد لمكافحة هذه الأوبئة ، ولو كان فى كفاحها كفاحٌ لنفسه وشهواته وأغراضه ؟ » هيهات ! وهو سؤال يعرف الأستاذ شاكر سلفا إجابته قبل أن يلفظ به ، والسؤال الحقيقى عنده هو « هل تَجِدُ مصر أخيرا طبيبها المغامر ؟ ليتها تجد » [1] . فهو لا يزال يؤمن أن الإصلاح لن يكون إلا على يد رجل مغامر طَبّ خبير بأدواء هذا الشعب المسكين . ولكن هذا الشعب المسكين ماهو إلا جزء من أمة كلها تعانى ما يعانيه ، غير أنّ فى هذا الشرق ميراثا نبيلا من السمو والفُتّوة والقدرة على البقاء ، ولكنه يفقد « زعيمه الذى يُهبّ من جماعاته كالأسد تنفرج عنه الأجمة الكثيفة عالى الرأس حديد النظرة ، تتفجر القوة من أعضائه » [2] .

وظلت مصر والعالم العربى والأستاذ شاكر فى انتظار خروج هذا الرجل ، وطال الانتظار ولكن الأستاذ شاكر لم يخامر قلبه شك قط ، بل كلما امتد الزمان وطال البلاء تحوّل ماكان يذكره مجرد ذِكْر ورجاء إلى يقين قاطع بيِّن . ففيما يشبه النبوءة كتب فى مقال بعنوان « لَمنْ أكتب » هذه الأسطر بنور البصر المُوحَى من البصيرة « لمن أكتب ؟ لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب ؟ ولمَ أكتب ؟ ولكنى أحسّ الآن من سِرّ قلبى أنى إنما كنت أكتب ، ولازلت أكتب ، لإنسان من الناس لا أدرى من هو ، ولا أين هو ؟ أهو حىّ فيسمعنى ، أم جنين لم يُولَد بعدُ سوف يُقَدَّر له أن يقرأنى ؟ ولست على يقين من شىء إلا أن الذى أدعو إليه سوف يتحقق يوما على يد مَن يُحْسِن توجيه هذه الأمم العربية والإسلامية [3] « فأنا

(١) انظر مقال « العيد » ، مجلة الرسالة ، ١٩٤٠ . وانظر المقالات ١ : ٧٦ .

(٢) انظر مقال « هذه هى الساعة » ، مجلة الرسالة ، ١٩٤٠ ، وانظر المقالات ١ : ٢٠٤ .

(٣) انظر مجلة الرسالة ، ١٩٤٨ ، وانظر المقالات ١ : ٥٥٦.

أكتب لرجل أو رجال سوف يخرجون من غِمار هذا الخَلْق ، قد امتلأت قلوبهم بالقوة التى تنفجر من قلوبهم كالسيل الجارف ، تطوح بما لا خير فيه ، وتروى أرضا صالحة تنبت نباتا طيبا ... سوف ينفرد رجل يقود الشعوب بحقّها لأنه منها : يشعر بما كانت تَشْعُر به ، ويألم لما كانت تألم له ، وينبض قلبه بالأمانى التى كانت تنبض فى قلوبها . وهو وحده الذى يعرف كيف يرفع عن عيونها حجاب الجهل ، ويطرح عن كواهلها قواصِم الفقر ، ويملأ قلوبها بما امتلأ به قلبه من حُب هذه الأرض التى تعيش فيها مضطهدة ذليلة خائفة . إنه الرجل الذى خُلِطت طينتُه التى خُلِق منها بالحرية ، فأبَتْ كل ذَرّة فى بدنه أن تكون عبدا لأحد ممن خلق الله على هذه الأرض . فهو يُشْرِق من جميع نواحيه على أجيال الناس كلها كما تشرق الشمس ترمى بأشعتها هنا وهنا . ولا يملك الناس إلا أن يَنْصِبُوا لها وجوهَهم وأبدانهم ليَذْهَب عنهم هذا البَرْدُ الشديد الذى شَلَّهم وأمسك أوصالهم عن الحركة . وهو يسير بينهم فتَسْرِى نَفْسُه فى نفوسهم ، فتموج الحياة فيهم بأمواجها التى لا يقف دونها شىء مهما بلغتْ قُوّته وجبروته » [1] . ثم يختم المقال مؤكدا أن هذا الرجل آت لا محالة ، فقد بلغ السيل الزُّبَى ، وتأصل الفساد واستشرى ، واستشعر الناس أن شيئا سوف يقع ما له من محيص ، وأنه مُواتٍ قريب ، « ألا إن هذا الشرق لينتظر صابرا - كعادته - هذا الرجل . وإنى لأحسّ أن كل شرقى يتلفَّت لا من حَيْرة وضلال ، بل توقُّعا لشىء سوف يأتى قد أَنَى زمانه » [2] . « فأنا إن كتبتُ ، فإنما أكتب لأتعجَّل قيام هذا الرجل من غِمار الناس ، لينقذنا من قبور جثمت علينا صَفائحها منذ أمد طويل . وليس بيننا وبين هذا البعث إلا القليل » [3] .

وبعد أربع [4] سنوات من كتابة هذا المقال خرج جمال عبد الناصر من غمار

---

(١) المصدر السابق ١ : ٥٥٦ .
(٢) نفس المصدر ١ : ٥٥٨ .
(٣) نفس المصدر ١ : ٥٥٩ .
(٤) خلال هذه السنوات لم يكتب الأستاذ مقالات سياسية فى مجلة الرسالة ، وليس معنى ذلك أنه توقف عن كتابة المقال السياسى ، فقد نشر ست مقالات سياسية فى « اللواء الجديد » بين عدد ٧ أغسطس ١٩٥١ ، وعدد ٢٥ سبتمبر من نفس السنة .

هذا الشعب المسكين وخرج معه رجال من غمار هذا الخلق ، فاستبشر الأستاذ شاكر ، فقد صح ما توقَّع وتحقق مابه تنبأ . فكان من أشد المؤيدين لهؤلاء الرجال خلال الشهور الأولى من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكان له دور فعال - لا يعلمه إلا قليل - فى مسألة الإصلاح الزراعى ، فكما ذكرت قَبْلُ أن الأستاذ رشا مهنا - الذى عُيِّن وصيًّا على العرش - كان من أصدقاء الأستاذ شاكر ومِن روّاد ندوته . وقد أسرَّ للأستاذ شاكر أن جماعة الإخوان المسلمين يقفون ضد إصدار قانون الإصلاحى الزراعى ويمارسون شتى أنواع الضغوط لإيقافه ، ولكن الأستاذ شاكر استطاع أن يقنع الأستاذ رشا مهنا ببطلان حجج الإخوان المسلمين الذين تبنَّوا هذه الدعوى ، وأبان له تاريخ محمد على وأسرته من بعده فى الاستيلاء على أراضى المصريين دون وجه حق ، ودون سبب شرعى أو مبرر تاريخى . وبذلك اكتسب أنصار الإصلاح الزراعى مؤيدا قويا ، فقد نافح عنه الأستاذ رشاد مهنا مسلَّحا بما زوّده به الأستاذ شاكر - وهو من هو فى تاريخ السياسة المصرية - بالحجج الدامغة والبراهين التاريخية الناصعة .

ولكن سَرْعان ماتبيَّن للأستاذ شاكر وغيره من الشعراء والمفكرين الأحرار أن النظام الملكى الفاسد الذى ولَّى أفسح مكانا لآخر طاغٍ مستبدّ . فكتب بعد ما يَقْرُب من خمسة أشهر من قيام ثورة ١٩٥٢ مقالا - استجابة لدعوة الأستاذ أحمد حسن الزيات - فى مجلة الرسالة (٥ يناير ١٩٥٣) بعنوان « فيم أكتب » . والمقال يُشْعِر أن الأستاذ شاكر يتحدث عن العالم العربى عامة ومانزل به من بلاء المحتل قرابة قرن أو يزيد ، ولكن القارىء اليقظ لن يفوته هجوم الأستاذ شاكر على النظام السياسى الجديد ، وأنا ناقِلٌ منه هنا فقرات لترى مصداق ما أقول : « ومنذ ذلك اليوم والأحداث فى الشرق العربى الإسلامى آخِذٌ بعضها برقاب بعض . وحركت الأحداثُ المتتابعة نَواعسَ الآمال ، فهبَّت تمسح عن عيونها النوم المتقادم . ثم حملقت فى أكداس الظلام المركوم . فأوهمتها اليقظة أن الظلام من حولها يُومض من بعيد ببصيص من نور ، فتنادت الصيحات بانقشاع الظُّلَم : وافرحتاه ! وصرختُ وأنا فى محبسى : واحسرتاه ، أَعَمَى رأى الظلامَ نهارا ! »

ولك أن تسأل أى أحداث تلك التى حركت نواعس الآمال فى الشرق العربى الإسلامى بين سنة ١٩٤٨ (وفى السنة التى كتب فيها الأستاذ شاكر آخر مقال سياسى فى مجلة الرسالة بعنوان « لِمَن أكتب » وبين سنة ١٩٥٢ التى قامت فيها الثورة المصرية ؟ أهى جلاء بريطانيا عن مصر والسودان ؟ أهى تبنىّ الأمم المتحدة لقضية مصر والسودان ؟ أم هى احتلال فلسطين والهزيمة المنكرة للجيوش العربية ، أم هى المجازر التى ارتكبها الصهاينة ضد عرب فلسطين العُزّل ؟ أم هى جلاء فرنسا عن الجزائر ؟ أى هذه الأحداث حرك نواعس الآمال فهبت الشعوب تمسح عن عيونها النوم المتقادم ؟ واقرأ المقالات الست التى أشرتُ إليها فى الهامش السابق ، والمنشورة فى « اللواء الجديد » سنة ١٩٥١ فكلها تتحدث عن النوازل التى داهمت **الشرق الإسلامى** من جراء الاحتلال وفساد الساسة الذين صنعهم الاستعمار ليقودوا بلادنا . ولا يُفْلِت القارىء مغزى كلمة « وصرخت وأنا فى **محبسى** » ، فالأستاذ شاكر لا يلقى الكلام على عواهنه ، فكل كلمة يكتبها هى فى حاقّ موضعها عما استقر فى ضمير نفسه ، فهو يعرف حق الكلام ، ويلتزم مقاطعه ومطالعه وحدوده ، ومايوجبه اللفظ من المعانى وما يتناوله من دقيق الاستنباط ، فهى صرخة سجين « طعين أفنى الليالى انتظارا » كما يقول فى رائيته . وإذا كنتَ فى شك مما أقول فاقرأ هذه الفقرة من نفس المقال : « ثم وَجَدْتُنى فجأة فى موج متلاطم من الضلالات ، تتقاذفه ضلالات العلم المكذوب ، وضلالات الرأى المدلس ، وضلالات السياسة الخداعة ، وإذا الأرض من حولى تعجّ بترتيل مظلم مخبول ، وإذا السماء تهتف بتسبيح كالح مزور ، وإذا صوتى يضيع فى سمعى ، فهو إذَنْ فى أسماع الناس أَضْيَعُ ، وتردَّد فى صدرى شِعر الحَكَمىّ ، فاستمعتُ له وسكتُّ :

مُتْ بداء الصمت خَيْرٌ ... لَكَ عن داء الكلامِ
إنما السَّالِمُ من أَلْـ ... ـجَمَ فاهُ بِلِجامِ

والأستاذ شاكر لم يسكت أبدا من قبلُ ، فقد هاجم دون وَجَل شرذام الساسة الذين لوَّثوا تاريخ الحياة الإسلامية والعربية ، وأصحاب السلطان الذين وصفهم

بأنهم « حثالة التاريخ الإنسانى » ، وأعمل مِعْولا لم يفلَّ أبدا فى صَرْح الاحتلال . فما الذى جدَّ الآن يجعله يؤثر « السلامة والسكوت » ! ولكن أنَّى لهذه النفس التى تَأْبَى أن تَتهضَّم أن تركن للصمت ، وأنَّى لهذه النفس التى حملت سلاحا مغموسا فى المداد تدافع به عن الحرية وكرامة الإنسان أن تستكين ، وهى نفس إذا أُخِذَت بالعَسْف والاقتسار انقلب الذى فيها ضاريا لا يُطيق ولا يُطاق . لذا يخاطب الأستاذَ الزيات فى آخر المقال بقوله « وإذنْ قد كُتِبَ علىَّ أن أنصب وجهى لهذا الشقاء الصَّيْخُود ، لا أبالى أن أحترق ، ولا أحفل أن أعود **سالما** ولا آبه لما يصيبنى ، مادام حقا علىَّ أداؤه ... فمنذ حملتُ إليك هذا القلم ، استجابة لدعوة لم أجد ردَّها من الأدب ولا من الوفاء فى شىء ، عرفتُ أنى سوف أكتب كما كنت أكتب قديما ، **لأتعجل انبعاث رجل من غمار أربعمئة مليون من العرب والمسلمين** ، تسمع يومئذ لحكمته الأجِنَّة فى بطون أمّهاتها ، وتهتدى بهديه الذرارِى فى أصلاب الآباء والأمّهات ، ولكنك بعدُ قد أنزلتنى بحيث يقول القائل :

حيث طابتْ شرائعُ الموت ، والمو
تُ مِرارًا يكون عَذْبَ الحِياضِ » (١)

خاب ظن الأستاذ شاكر فى الرجل الذى خرج من غمار الشعب المصرى المسكين ، ظنَّه رجله المنتظر ولكن لأيًا ما تبيَّن غير ذلك ، فولَّى وجهه شطر الأمة الإسلامية كلها ينفضها بناظريه يترقّب خروج هذا الرجل من غمار أربعمائة مليون من العرب والمسلمين . رأى الأستاذ شاكر بعد ثورة ١٩٥٢ بلاء نازلا يخوضه الناس كأنه رحمة مُهْداة . ورأى حيث تلفَّتَ وجوها تكذِب ، ووجوها مَكْذُوبا عليها . وسمع أصواتا تَخْدَع ، وآذانا مَخْدُوعة بما تَسْمَع ، وقرأ كلاما مَغْموسا فى النفاق ، وشاهد بطشا وبغيا . فأوجس فى نفسه خيفة واستشعر خطرا مُحَوِّما ، ومن ثم تستطيع أن تفهم لماذا قال إنه نصب وجهه لهذا الشقاء الصيخود ،

---

(١) انظر ١ : ٥٨٧ من المقالات .

لا يبالى أن يحترق ولا يحفل أن يعود سالما ، ثم استشهد بهذا البيت عن شرائع الموت التى أنزله إياها الأستاذ الزيات حين دعاه أن يكتب بعد انقطاع دام خمس سنين . ولولا خشية الإطالة لأتيتك بأدلة أخرى من المقالات الثلاث التى أعقبت هذا المقال ، وهى : أبصر طريقك ، باطل مشرق ، غرارة ملقاة ، وهى آخر ماكتب فى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ وهو فى محبس عزلته التى ارتضاها لنفسه منذ ذلك التاريخ . فقد عزم على أن يدع قلمه قارًّا حيث هو فى سِنَة لا تنقطع حتى يعلوه صدأ لا ينجلى . وكان قبلُ قد نذر على قلمه أن لا يكفّ عن القتال فى سبيل العرب ما استطاع أن يحمله وما أتيح له أن يجد مكانا يقول فيه الحق ويدعو إليه ، ولكن مجلة الرسالة التى وصفها بأنها « ملاذ الأقلام الحُرّة التى لا تَثْنيها عن الحق رهبةٌ ، ولا تصدّها عن البيان مخافةٌ » قد بات عسيرا أن يجرى قلمه على صفحاتها ، فقد أُغْلِقت مجلة الرسالة بعد آخر عدد كتب فيه مقاله « غرارة ملقاة » فى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ . وإذا كان الأستاذ شاكر قد كفَّ قلمه عن الكتابة ، فلم يكف لسانه عن الكلام ونقد النظام السياسى آنذاك فاعْتُقِل مرتين خلال حكم الرئيس جمال عبد الناصر ، أولاهما استمرت تسعة أشهر من ٩ فبراير سنة ١٩٥٩ إلى آخر أكتوبر من نفس السنة ، وثانيتهما دامت ثمانية وعشرين شهرا من ٣١ أغسطس عام ١٩٦٥ إلى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧ . وكانت الذريعة التى تعلق بها النظام بشأن الاعتقال الثانى أن الأستاذ شاكر كان يرمى إلى إثارة فتنة طائفية بمقالاته التى كتبها ردا على لويس عوض .

فانظر الآن أى ضرب من الرجال هو ! شاعر فذّ تجاهل شعره النقاد ، ولم يلتفت أحد منهم إلى « القوس العذراء » إلا بعد ثلاثين سنة من نشرها . وباحث عبقرى أتى بمنهج فريد فى كتابه « المتنبى » لم ينتبه إليه أحد ، وكاتب واسع الثقافة يقوم بكل علوم العربية لم يقدره أحد حق قدره ، ومجاهد سياسى أفنى حياته يدافع عن وطنه وعروبته ، وتراثه وحضارته وعربيته ، فذهب قوله باطلا وضاع صوته مختنقا ، ولم يجن من حياته إلا شقاء انتهى به إلى ظلام السجون .

جعل الرَّجُل كل ذلك ظهريا ، وعاش فى عزلة فرضها على نفسه غير مبال

بشيء ، ذكره الناس أو نسوه ، وقنع بطلاب العلم وأهله الذين كانوا يترددون عليه للنهل من علمه ، وضنَّ على جيله وما تلاه من أجيال بعلمه القديم أن يبعثه من رفاته التي قبروها بتجاهلهم وجحودهم . ولم يغب عنه أن هذه العزلة قد فعلت أفعالها بالأجيال التي تعاقبت فحالت بينهم وبينه ، يقول « وضعت اسمى فى صندوق مغلق ، لا يعرف مافيه إلا عدد من قدماء القراء . أما الأجيال الحديثة فهى تمرّ عليه بلا مبالاة ، ثم لا تجد ما يحفزها على الكشف عما يحتويه الصندوق المغلق ، والكاتب إذا وضع قلمه صدىء ، وإذا حجب اسمه عن القراء ، نُسِى اسمه ، وانطمس رسمه ، ودخل فى حيز الموتى ، وإن كان يعد فى الأحياء » ص ١٠٧١ .

وإذا كانت هذه العزلة قد حجبته عن جيلنا والجيل الذى سبقنا ، فما بال الأجيال الذى تلتنا ؟ ألم تكن مقالاته فى الرد على لويس كفيلة بنزع الغشاوة عن العيون فتبصر هذا المجاهد السياسى الذى شرع قلمه رمحا حديد السنان مدافعا عن أمته وعروبته وإسلامه غير عابىء بما يصيبه ، ولا يبالى أن يعود من رحى هذه الحروب سالما أو مُكَلَّما مثخنا بالجراح ، أو مكبلا بالقيود فى غياهب السجون ؟ ألم تكن مقالاته « نَمَطٌ صعب ونمط مخيف » زعيمة أن تجعل النقاد ودارسى الأدب يقتفون خطاه فى تحليل القصائد العربية القديمة ؟

وأين كانت مجامع اللغة العربية منذ تأسست حتى انتخابه عضوا مراسلا بمجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠ ، وعضوا عاملا بمجمع اللغة العربية بمصر سنة ١٩٨٢ ؟ فهذى أربعون سنة أو تزيد أغفلته المجامع كأنه غير جدير بعضويتها ، وقل مثل ذلك فى كل مؤسسات مصر الثقافية والتعليمية التى كانت ستفيد من خبرته لو أفسحت له مكانا حين كانت تعج بأشباه المثقفين وأدعياء العِلْم .

وأين كانت الهيئات التى تمنح الجوائز للعلماء والأدباء ورجال الفكر كِفاءَ ما أسهموا به فى تقدم أمتهم والتمكين لبقاء حضارتها ؟ هل ضُرِب بينها وبين عطائه الذى لم ينقطع أربعين حولا كَرِيتا بالأسداد حتى عام ١٩٨١ ؟

وأين كانت الجامعات ومعاهد العلم هذه السنين ذوات العدد ، فلم توجه طلابها لدراسة إنتاجه البعيد الغور فى أعماق الفكر والمتراحب الآفاق فى أجواء الشعر والأدب والنقد واللغة حتى سنة ١٩٨٥ ؟

إذا استطعت أن تكون مُقْسِطا ، وأجبت فى حَيْدة دون أن تهوى فى مزالق الأهواء فهمتَ لماذا آثر الأستاذ شاكر أن يعيش رهين بيته ، وقد صار إحساسه المبهم القديم بانغماسه فى « حياة فاسدة من كل وجه » متصاعدا يقينا لا شك فيه ، وفهمت أيضا قصة الكتاب التى حكيتُها فى صدر هذا التقديم .

وبعد ،

فقد خالفتُ الأستاذَ محمود شاكر مرتين ، مرة فى حياته فى صدر شبابى بِنَشْرى شعر الأحوص الأنصارى ، ومرة بعد مماته بعد أن ولّى الشباب وأَنَفْتُ على العمر بنشرى مقالاته ، وكنت محقا فى الأولى ، وما أخطأتُ فى الثانية ، فلعله - طيب الله ثراه - يفىء إلى الحق فى هذه كما عاد إليه فى تلك .

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ .

عادل سليمان جمال

دبى ، دولـــة الإمارات العربية

ليلة النصف من شعبان ١٤٢٣ هـ
الاثنين ٢١ أكتوبر ٢٠٠٢ م

* * *

نموذج من خط الأستاذ محمود محمد شاكر

١ - حين دعيتُ إلى إلقاء هذه الكلمة بين أيديكم، كان أول ما فكرت فيه أن أعدّد أنواع الأخطار التي تحيط ببلادنا، والأخطار التي تتغلغل في كياننا تغلغل السوس في العرق العتيق .. ولست أعني مصر والسودان وحدهما، بل أعني جميع بلاد الشرق، وبلاد العرب، وبلاد الإسلام. فنحن فيما أرى رقعة واحدة، لها هدفٌ واحدٌ هو الحرية، تنازل عدوًا واحدًا له هدفٌ واحدٌ، هو أن يسلبنا هذه الحرية.

٢ - ولكني رأيت الأخطار أكثر من أن يحيط بها حديثٌ واحد، ورأيتها جميعًا ترتدّ إلى زمن بعيد، ورأيتها قد تطورت أطوارًا على مرّ الأيام. ورأيت المرء إذا رام أن يتتبّع هذه الأخطار الداهمة أوقاتًا كثيرة فعل، وإذا أبى إلا أن يحصرها في شيء واحد فعل أيضًا غير آثم ولا مجانب للصواب. وهذا الشيء هو الاستعمار، فالاستعمار خليق أن يجمع في هذا اللفظ البغيض من اللغة كل معاني الأخطار، وكل خبائث الشرور التي اجتمعت في أرض الله منذ كانت هذه الأرض. فآثرت أن أجعله مادة هذا الحديث، لا لأنه شيء حدث اليوم بعد أن لم يكن بالأمس، بل هو كما تعلمون قديم قد تطاول عليه الأمد، والحديث عن شروره قديم أيضًا منذ كان هذا الخبث اللعين.

ولم تزل أرجاء الشرق تردد أصداء الزئير العالي، زئير الأحرار في كل بقعة من بقاعه، ولم تزل ترجع أيضًا أنات المعذبين، الذين صب عليهم الاستعمار عذابًا غليظًا ونكالًا شديدًا في كل مكان. ليس الاستعمار إذن شيئًا حديثًا كأنه بدا ولم يكن من قبل، بيد أنه شيء يتجدد كل يوم، ويتخذ صورًا مستحدثة مختلفة الأشكال، بعضها بشع تنكره العين منذ النظرة الأولى، وبعضها ثقيل بغيض إلى النفوس، ولكنه يلح إلحاح الذباب حتى ييأس المبتلى به، فيعرض عنه تارة ويتجشمه أخرى، فإذا طال الزمن ألف هذا البغيض الثقيل فلم ينكره. أما أخبث صوره وأخفاها فهو الذي يأتي القلوب من أضعف أركانها، فيتمكن ويضرب بعروقه، ويستفحل ويتفشى، حتى لا يكاد ينفر منه أشد الناس بغضًا للاستعمار، وأصدقهم حملة على أصحابه وطرًا.

٣ - والأخطار الحديثة التي يشملها لفظ الاستعمار كثيرة لا يحصرها عدٌّ، وأظهرها الآن خطر المطامع الديمقراطية التي هبّت على الشرق كالذئاب الضارية من كل أرض وفي كل ميدان. وخطر المطامع الشيوعية التي تتدسس إلى كل قلب، فتلقي فيه فتنتها، وتنفث فيه سمومها. ومن البلاء أن تجد كثيرًا من الناس لا يزالون يؤمنون بأنهم سوف ينالون خيرًا كثيرًا - أو بعض الخير على الأقل - على يد الفئة الديمقراطية، وأن تجد آخرين لا يزالون يؤمنون بأن الفئة الشيوعية لا تضمر كبير شر لهذه البقعة المسكينة من بلاد العرب أو بلاد الإسلام أو بلاد الشرق. وهذا الضرب من الإيمان، بل هذا الضرب من الغفلة، كان منذ قديم أكبر مقاصد الاستعمار، سعى إليه، ولا يزال يسعى إلى الإكثار منه، وإلى تزيينه للجماهير، لا عند الطبقة المثقفة وحسب. ولقد أدرك الاستعمار ما شاء من هذا المقصد. فمن أجل ذلك رأيت أن أصرف وجه الحديث إلى ناحية من نواحي الاستعمار، لعلها أجدر بالبيان والفهم، وأرى التقصير في بيانها وإخفاءها عن جماهير الناس، هو الخطر العميق الكامن وراء خطر الديمقراطية ووراء خطر الشيوعية، أو وراء خطر الاحتلال العسكري السافر، أو خطر الاحتلال الاقتصادي الملثم، بل هي مادة كل خطر يتجدد علينا إلى أن يزول الاستعمار عن وجه هذه الدنيا.

* انظر « الاستعمار البريطاني لمصر » ، محاضرة بخطه لم تنشر من قبل - ص ٩١١ من المقالات .